قصيدة النّثر وأزمة التّلقي

الشّريف خبيزي
المشرف: د. كمال علّوش، أستاذ محاضر "أ"
مخبر اللسانيات النّصية وتحليل الخطاب
جامعة قاصدي مرباح-ورقلة

ملخص
لقد واجهت قصيدة النّثر صعوبات كبيرة في تلقيها أول وهلة، بسبب بنيتها الفوضوية التي طبعت نماذجها الأولى وما رافقها من آراء نقدية مثيرة للجدل دفعت بشعراء كثيرين يصرحون بأن لا جمهور لهم ولا يريدون جمهوراً ؛الأمر الذي خلق أزمة في تلقي قصيدة النّثر، وهذا ما ستوضحه هذه الدراسة.
الكلمات المفتاحية: *قصيدة، النّثر، أزمة، التّلقي، القارئ.*

Résumé
Le poème en prose a rencontré de grandes difficultés au premier abord, à cause de sa structure chaotique, qui imprimait ses premiers modèles et les critiques qui l'accompagnaient, ce qui a amené de nombreux poètes à déclarer qu'ils n'avaient ni auditoire ni audience, ce qui a provoqué une crise dans la réception du poème en prose. Ceci sera expliqué dans cette étude.
***Mots-clés** : poème, prose, crise, reception, lecteur*

Abstract
The prose poem encountered great difficulties at first sight, because of its chaotic structure, which printed its first models and the accompanying critical critiques that prompted many poets to declare that they did not have an audience and did not want an audience. This created a crisis in receiving the prose poem, This will be explained in this study.
***Keywords**: poem, prose, crisis, reception, reader*

مقدمة

إنّ الشّعر الحقيقي في كل زمان ومكان، هو الذي يجد طريقه إلى المتلقي ولا يكون ذلك إلا بوسائل يمكن أن يستثمرها الشاعر من أجل إيصال رسالة عبر قصيدته، ومعنى هذا أنه لا قيمة لأي قصيدة ما لم يكن لها أثر في المتلقي، أو ما لم يكن للمتلقي أثر فيها، والشاعر

الموهوب هو الذي يستطيع خلق عالم وأرضية من الانسجام والتلاحم بين شعره ومتلقيه، وهذا لا يعني أن يتنازل الشاعر عن قيم شعرية جمالية راسخة في ذهنيته بداعي الاقتراب من المتلقي.

هذا ما يقف عليه الباحث وهو يعاين الأزمة التي طالت القصيدة العربية الحديثة، وخاصةً قصيدة النثر التي واجهت صعوبات كبيرة في تلقيها في بداياتها بسبب بنيتها الفوضوية التي طبعت نماذجها الأولى، وما رافقها من قضايا نقدية مثيرة للجدل دفعت بشعراء كثيرين إلى البحث عن وسائل لا تختلف كثيرا عن الوسائل البيانية والإيقاعية التي استعملها الشاعر القديم، في حين اكتفى آخرون بأنفسهم وصرّحوا بأن لا جمهور لهم ولا يريدون جمهورا، إذ أنهم يكتبون لجمهور مفترض لا وجود له سوى في عقولهم ، وهو أمر يتنافى مع وظيفة الشعر التي تتطلب وجود ثنائية (الشّاعر والمتلقي)، فما طبيعة هاته الأزمة؟، وما هي نظرة النّقاد في طريقة تلقي قصيدة النثر؟ .

الفجوة بين شاعر قصيدة النثر ومتلقيها

لقد انتبه بعض شعراء قصيدة النثر إلى ضرورة إيجاد قيم جديدة لتلقي نصوصهم حين حاولوا انتشالها من القطيعة التي واجهتها، ونفور الجمهور عنها بدواع مختلفة، إذ لم يستطيعوا التحرر من سلطة المتلقي.

إنّ هذا الشعور الذي صاحب شاعر قصيدة النّثر بأن التغريب في المعاني والانغماس في الرمزية وتحويل القصيدة إلى رموز وطلاسم ليس في صالح النّص والمبدع، لأن فرضية بعض الشعراء بأن لا داعي لوجود جمهور كلام يخالف المنطق تماماً، فثمّة قارئٌ مستقبليٌ ينتظر النّص، فإذا كان النّص لم يجد من يصغي له في حياته الأولى، فمن يضمن بأن لا يجد له آذاناً صاغيةً في المستقبل.

إنّ الغموض في أكثر نصوص شعراء قصيدة النّثر كان حاجزاً بينها وبين تلقيها، إذ أنّه "*متصلٌ بنية الشاعر في إتيان الغامض من الكلام واختيار منظومة من الدّوال العصيّة على الفهم إيغالاً في الاستعارة ورغبةً في تشكيل لغويٍ معتم للمعاني*"[1]، بدعوى الحداثة وما بعدها، ولقد أصبحت مشكلةً من مشكلات الشّعر العربي الحديث بشكلٍ عام، فضلاً عن

[1]خالدة سعيدة، حركية الإبداع ،دراسات في الأدب العربي الحديث ،دار العودة، بيروت ط2، 1982م ، ص 76.

أنّ تغريب الشّاعر في صوره يزيد من صعوبة تلقي نصوصه، إذ أنّها دائماً " *لا تُترجم غالباً وفق منطق العلائق الخارجية*"(2)، الأمر الذي يضفي عليها غموضاً والتباساً على متلقيها.

وهنا يجب ألّا يُفهم من هذا أنّنا نُطالب الشّاعر بعدم التّحليق في فضاءات الخيال والإتيان بصورةٍ بعيدةٍ ، ولكن نحن نريد من كل قصيدةٍ أن تكون " *أرضاً جديدةً تُضاف إلى العالم المعروف*"(3)، وهذا يعني استبعاد كل ما هو جاهزٌ ومعادٌ ومقولبٌ حتّى لا يُنافي القدرة الإبداعية في الشّاعر والقارئ معاً ويعمل على تغييب الشّعر الحقيقي.

النّقاد وتلقي قصيدة النّثر

تتباين نظرة النّقاد إلى طريقة تلقي الشّعر بكل أجناسه؛ ولا سيّما قصيدة النّثر، فثمّة نظرةٌ ترى أنّ الشّاعر بحجة مراعاة المتلقي يقع تحت سلطة القارئ السلبي الذي لا يُقبل على الشّعر إلا إذا كان "*ترنيمةً تُهدهِدُه أو تُطرِبُه*"(4)،أو تتحول القصيدة لديه إلى شعاراتٍ مجانيةٍ، وتجميعِ مفرداتٍ في هيئة قصيدة، إنّ القارئ هو شريكٌ حقيقيٌ للمبدع ، والقصيدة لا تكتمل بغير القارئ، وهو عين ما تؤكده نظرية القراءة والتّلقي التّي ترى "*أنّ الكاتبَ واضعُ نصٍ، والقارئُ يخلق هذا النّص من جديد*"(5)؛ إنّ مثل هذه النّظرة تريدُ من القارئ أن ينتفضَ لنفسه وألاّ يكون كسولاً ، وأن يكون لقاؤه بالنّص"هو *لقاء تفاعلٍ وتبادلٍ وإنتاجٍ*"(6).

ومعنى هذا أنّنا إزاءَ البحث عن قارئٍ مثقفٍ يتفاعلُ مع النّصوص التّي تصبح ميداناً يلتقي عليها الشّاعر والقارئُ، مثل تلك النّصوص هي بالتأكيد تبحث عن قارئٍ نخبويٍ لا أيَّ قارئٍ، وهو أمرٌ يمكن أن تجده وأنت تقرأ شعر شاعرٍ مجددٍ مثل أدونيس الذي كان شعره عودةً صريحةً "*إلى تحريك الفكر، وإنزال المسلمات عن عروشها*"(7)، وهو أمرٌ ربما ينافي ما اعتاد عليه القارئ العربي الذي شغف بغنائية الشعر العربي التي ظلت سائدةً، ولمَّا تزل إلى يومنا الحاضر، وهذا يحتاج إلى قارئٍ من طرازٍ خاصٍ لا بدّ من أن تكون له ذخيرتُه المقابلة لما تدّخره النّصوص من دلالاتٍ وإيحاءاتٍ وحمولاتٍ معرفيةٍ وثقافيةٍ؛ وهو ما عقّد

(2) المصدر نفسه ، ص 75.

(3)خالدة سعيدة ، ص 94 .

(4)المصدر نفسه ، ص 94 .

(5)المصدر نفسه ، ص 94 .

(6)استراتيجيات التلقي في النقد الأدبي، ماجد صالح السامرائي، مجلة الأقلام، العدد 4، آب – أيلول لسنة 1998، ص 4

(7)خالدة سعيدة ، ص 95 .

العلاقة بين النّص الجديد والجمهور بشكلٍ واضحٍ، وأفقد نظرية القراءة والتّلقي عنصراً مهماً من عناصرها، أعني القارئ الذي أصبح دوره مغايراً لدوره القديم في النّص التقليدي.

هنا يجب التنويه إلى أنّ بعض شعراء قصيدة النّثر ينكرون على نصوصهم أن يكون لها حظوظٌ في الإلقاء والإنشاد، إذ يرون أنّها " *تخاطب معرفة القارئ الكتابية لا الشفاهية ؛ لذلك فهي تستعين بوسائلَ كتابية متنوعة كأسلوبية البياض ولتوصيل الإحساس بالزمن، وعلامات الترقيم لغرض توصيل الانفعال*"(8)، بمعنى آخر إنّها تولد إيحاءات لا معاني كونها قصيدة دلالية، وهذا يجعلها دينامية المعاني، ويجعل المتلقي متغيراً طالما كان موقع المتلفظ متبدلاً على الدوام"(9).

إنّ هذه النظرة لا ترى ضرورياً أن تكون القصيدة قسيمةَ واقعها ، بمعنى أنّ شاعرها يسقط من حسابه ما يُعرف بالجمهور؛ إذ تجده مصطلحاً فضفاضاً يتّسع إلى حدّ الخروج عن أدبية الأدب وشعرية الشعر، وهي بهذا ترى أنّ الإنشاد الذي هو مرتبطٌ بالجمهور يفرز هنّاتٍ كثيرةٍ تؤثّر في فنية النّص وتوقف خصائصه ومزاياه الداخلية، وتعود به إلى الرّوح الكلاسيكية القديمة التي سادت الشّعر العربي سنواتٍ طويلة، لذلك فهي تجد من الضروري "*استبدال مصطلح الجمهور بالمتلقي أو المتقبل أو القارئ، لإنجاز وجود النّص وإظهار شعريته التّي لا يستطيع الجمهور الشفاهي أن يحققها*"(10).

كما أنّنا لا نريد من الشاعر أن يقتفي خطا الشاعر القديم في تلبية متطلبات المتلقي ليضمن له شهرةً واسعةً، إذ " *كانت العامّة تتطلب صورة بذاتها، وكان على الشاعر إذا أراد أن تذيع شهرته أن يتبع هذه الصورة* "(11).

وفضلاً عن ذلك، إنّ الحديث عن القطيعة بين الشاعر ومتلقيه ليست مقتصرة على القرّاء فحسب، بل تشمل المثقفين والمتخصصين، يقول د. ضياء خضير "*يجب أن نتذكر أنّه حتّى بالنسبة إلى بعض المثقفين منا يبدو الاستماع إلى كثير ما يلقى في مهرجاناته الشعرية، وقراءة الدواوين الحديثة أمراً صعباً أو قليل الجدوى*"(12)، وكلام د. ضياء خضير لا يصدق

---

(8)حاتم الصكر، حلم الفراشة، الإيقاع الداخلي في قصيدة النثر، إصدارات وزارة الثقافة، صنعاء، 2004م، ص48.

(9) المصدر نفسه، ص 51 .

(10)حاتم الصكر، ص 73 .

(11)عزالدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة ، مصر ، 2000م ، ص 169.

(12)ضياء خضير، بحثا عن الطريق، أبحاث ومقالات في النقد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الدراسات (350)، بغداد، العراق ، 1983م ، ص133.

على الشّعر كلّه، فقد استثنى جزءاً منه لاشكّ أنّه قد اشتمل على خصائصَ جمالية وموضوعية جعلته يلفت انتباه القارئ ويستحوذ على تلقيه ، فقد عدّ كثيرٌ من الدارسين أصل القطيعة بين القارئ والنّص هو ظاهرة الغموض التي اشتغل عليها شعراء قصيدة النّثر بسبب ميلهم "*إلى تعقيد تصنيع تشكيلهم الفني ، واعتماد لغة تصل إلى حدود الخرق اللغوي*"[13]، ذلك أن النص إذا وقع في الغموض انقطعت صلته بالمتلقي بحسب وصف جان كوهين[14].

كما أنّ على الشاعر أن يردم الهوة بينه وبين المتلقي ، فثمة تفاوتٌ ثقافي ومعرفي بينهما لا ينكر "*فالشاعر دائما يتخيل قارئاً وهمياً يتوافق مع تحصيله المعرفي والثقافي، وهو أمر لا يوفق فيه الشاعر*"[15]؛ لذلك فقد برّأ أدونيس ساحة الشاعر وألقى اللوم على القارئ الذي رأى " *أن ما يسمى بصعوبة الشعر لا يتولد مع النّص ذاته وليس كامنة فيه، وإنما تتولد عن أمرين: الأول مستوى الثقافة ونوعيتها، والثاني يرتبط بمدى وعي القارئ لمعنى الشعر وعمليته الإبداعية وكيفية قراءته*"[16].

وكما لا يفوت الباحث أن يرجع ظاهرة ضعف تلقي الشعر إلى الشعراء أنفسهم؛ إذ تتلبسهم "*النرجسية الاصطفائية التي تحمل من يعملون في ميادين الثقافة من شعراء وفنانين وفلاسفة وفقهاء إلى التعامل مع أنفسهم بوصفهم يجسدون عقول البشرية وضمائرها ومناراتها ورسلها* "[17]، وهي ظاهرة ثقافية عززت القطيعة بين الشاعر والمتلقي؛ إذ دعت "*القارئ أن يرقى إلى مستوى الشاعر،وليس على الشاعر أن يقدم للقارئ أفكاره بأسلوب يعرفه الجميع*"[18]، وهو المنطق نفسه الذي احتكم إليه أبوتمام في مخاطبة المشككين في شعره في القرن الثالث الهجري، والمنطق نفسه- أيضاً – الذي احتكم إليه سارتر حين قال: " *لا ينبغي أن نهبط لكي نعجب الناس، بل على النقيض من ذلك ينبغي أن نوحي إلى*

---

[13]سامح الرواشدة، إشكالية التلقي والتأويل، دراسة في الشعر العربي الحديث، جامعة مؤتة، المطابع التعاونية، عمان، الأردن، 2001م ص 6.

[14] المصدر نفسه، ص 6.

[15]عباس عودة شنيور، تلقي الشعر العربي المعاصر في العراق، دراسة في مستوى الاستجابة، رسالة دكتوراه، كلية التربية جامعة البصرة،2008م ، ص 157 .

[16]أدونيس، ها أنت أيها الوقت، سيرة شعرية ثقافية، دار الآداب، بيروت ،ط1، 1993م ، ص 72.

[17]علي حرب ،العالم ومأزقه، منطق الصدام ولغة التداول، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1،2002م ص 35.

[18]أدونيس، مقدمة الشعر العربي، ط3، دار العودة، لبنان 1979 م، ص 43.

الجمهور بمطالبه الخاصّة، وأن نرتفع به قليلا قليلاً قليلاً حتى تتكون لديه حاجة إلى القراءة "[19]، إنّ هذا الأمر كله جعل مهمة التلقي صعبة، وصارت ظاهرةُ التلقي ظاهرةً عامّة شملت الفئات المثقفة والعاملة في الحقول المعرفية المتنوعة، وبسبب تلك النظرة إلى علاقة الناس بالشعر جمهوراً كان أم قارئاً، أبدى بعض الشعراء عدم اكتراثهم بالجمهور.

وثمّة نظرةٌ أخرى ترى أنّ واحداً من أسباب ضعف تلقي الشعر هو ظهور أجناس شعرية جديدة زاحمت القصيدة التقليدية ، وبالضبط قصيدة النّثر التّي "*عقّدت أزمة التوصيل التي أوجدتها قصيدة التفعيلة*"[20]، ومعنى هذا أن بعض دعاة قصيدة النّثر رفضوا أن يكون لقصيدتهم جمهور بالمعنى التقليدي بعد التحولات الكبيرة التي شهدتها القصيدة العربية وظهور أجناس شعرية جديدة خرجت على القصيدة الكلاسيكية وسوّقت نفسها على أنّها حاملةٌ للواء الحداثة، أوهي قصيدة الحداثة ، وقد رافق هذا تحولٌ آخر؛ إذ خرجت على الشفاهية التي استغرقتها أمداً طويلاً واعتمدت على الكتابة وعلى البصر وعلى السمع، فجمهور قصيدة النّثر إذن هو شعراؤها ونقادها، ومن هنا يمكن أن نفهم صرخة أدونيس" *ليس لي جمهورٌ، لا أريد جمهوراً*"[21]، التي لا تقتصر على قصيدته النثرية، بل تشمل عموم شعره الذي شغلت قصيدة التفعيلة جزءاً منه، بمعنى أن ضعف التلقي قد كرّسته الأجناس الجديدة في الشّعرية العربية بالشكل الذي مثّل ظاهرةً وقفت عندها النقدية العربية.

وثمّة نظرةٌ ثالثةٌ ترى: أنّ الشعراء يدٌ والجمهور بابٌ، والشاعر الذي لا يتجه بشعره إلى أحد يبقى نائماً في الشارع، شعراءُ كثيرون لايزالون نائمين في الشّارع[22].

التساوي بين درجة الصمت والشّعر

وفي لفتة نقدية ربط د. عباس عودة شنيور بين الصمت والشعر؛ إذ أنّه يرى:" *أنّها محنة الشاعر المعاصر، حين يتساوى عنده الشعر و الصمت، بسبب لامبالاة المجتمع بصوته المختنق، وضياع مكانته المرموقة في زحمة التدافع البشري اليومي*"[23]، فدلالة الصمت

[19]جان بول سارتر، ما الأدب، تر د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د. ت ، ص242.

[20]محمد عبدالرحمان القعود، الإبهام في شعر الحداثة، سلسلة عالم المعرفة العدد 279 شهر مارس 2002م ،ص 156.

[21]شاكر عبدالحميد، التفضيل الجمالي، دراسة في سيكولوجية التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، عام 2002م، ص 350.

[22]عباس عودة شنيور ، ص 156.

[23]المصدر نفسه، ص 131 .

هي المعادل الموضوعي لإحساس الشاعر بالمسافة الشاسعة التي تفصل بينه وبين متلقيه وهو ما دفعه في بعض الأحايين أن يعتزل الناس وينكفئ إلى ذاته .

فالصمت هو نفسه ضعف التلقي بل إنّ الشاعر يذهب إلى أبعد من ذلك حين يتملكه إحساس بأنّ النّاس لا تفهمه وكأنّه كائنٌ من كوكبٍ آخرَ، والقصيدة حينئذ تتحول إلى كابوس يؤرق الشاعر، ومن ذلك يمكن أن نفسر الثّورة العارمة التي أشعل فتيلها بعض الشعراء على النّاس بشكل عام ؛ إذ رأوا فيهم قتلة للإبداع والشعر، ومن دون شك فإن في هذا الحكم تجنيا كبيراً على النّاس، إذ ليس من وظيفتهم في هذا الكون أن يقرؤوا الشعر ويتفاعلوا معه، فلديها من المشاغل والهموم ما يشغلهم عن كثير من الملذات، والشعر هو بالنهاية نوعٌ من اللذة، فالأكل والشرب والتذوق هي مقومات الحياة، وإن اختلفت الرغبة من إنسان لآخر، ومن ذلك نفهم أن ثمة أزمة تلقٍ ما زالت تطل برأسها في الشعرية العربية .

خاتمة

لَقد حاولت الدّراسة تقصي ظاهرة ضعف التّلقي في قصيدة النّثر التي صارت أزمةً يتوجب على الشّاعر الحديث إيجاد مخرجٍ منها، فعلى الشّاعر أن يعرف أسرار اللعبة الشعرية ويعرف من أين تبدأ القصيدة؟ وأين تنتهي؟ وأن يكون وراء كتابتها مغزى ما، كما عليه إذابة الجليد بينه وبين المتلقي بإيجاد برزخٍ خاصٍ يلتقي فيه الاثنان حتّى يضمن المرسِل إيصال رسالته إلى المتلقي، وذلك بأن يتحرّر من كونه شاعراً يكتب الشّعرَ لأجل الشّعرِ فحسب، بل لا بدّ أن يكون بمستوى الرسالة التّي يمثّلها الشّعر في الحياة، وهو أمرٌ ليس منوطاً بالشّعراء وحدهم، بل إنّ النّقد يتحمّل كثيراً من المسؤولية في ذلك.